

أعمدة هرقل

الإستاذ عبد العزيز الرفاعي

وانه عند البابليين اله مياه العالم السفلى التى تحبسها دعائم أو أعمدة .. و « كأنهم كانوا يتصورونها مثل دعائم السدود والخزانات تقام لحبس مياه السيول والانهار ، وكان اقدم هذا الاله السفلى الشرير ، على قلع تلك الاعمدة ، هو تفسير زيادة مياه الانهار عندهم ، وارتفاعها عن المستوى المعقول احيانا ، ايام الفيضان كل عام .. »

ثم يقول الاستاذ الفاضل : « ويبدو ان ولعى بمقارنة الالفاظ وتحصى معانيها ، واستعراض متشابهاتها قد ابتلانى بحساسية خاصة لا شعورية فى بعض الالفاظ ، فما سمعت عيني كلمة (ايراقال) ، اعنى ماوتعت عليها عيني ، وتحسستها اذنى ، حتى تفز السى ذهنى اسم هرقل (Herakles) بالاغريقية و Hercules باللاتينية) . لكنى فى العادة سرعان ما انبذ الاهتمام بالتشابه ، اذا لم اجد صلة معنوية تربط بين اللفظين . اما الشبه بين (ايراقال) و (هرقل) فلم استطع ان انبذه بهذه السهولة ، لان شيئاً آخر تفز معه الى ذهنى هو « أعمدة هرقل Pillars of Hercules بالانكليزية و

اعجابى بالاستاذ عبد الحق فاضل ، فى ادبه وعلمه وسعة اطلاعه ودقة بحثه ، اعجاب قديم ، منذ قرأت له « ثورة الخيام » ، ذلك الكتاب القيم بل الرائع ..

وقد تجدد هذا الاعجاب ، حينما أخذت اطلع على مقالاته الماتعة فى مجلة « اللسان العربى » ، وخاصة تخرجاته اللغوية الفاحصة !

وأخر ما قرأت له فيها ، مقاله عن « اطلنطة » الذى ضمه عنوان شامل هو « تاريخهم من لغتهم » فى « المجلد العاشر ، الجزء الاول ص 151 » .

وهو لا يخرج فى امتاعه ، عما عودنا الاستاذ الكبير ..

وقد وقفت ، متأملاً ، لدى ما اورده فيه الاستاذ عن أعمدة هرقل ..

فقد عرج على ذكر « ايراقال » .. الذى قال عنه ، انه ورد اسمه فى المصادر الانكليزية (Irragal)

Hercules columnae باللاتينية» .

هرقل « ، فأول ما يخطر على بال سامع هذه التسمية هي دعائم الجسر ، فخالوا أن جسرا كان وزال ، وحين يكون جسر ، يعبر الناس والدواب أيضا » ..

وقد استوتفت نظري في هذا البحث المانع ، كل ما يتعلق بهذا الجسر ، الذى يربط بين جبل طارق ، وبين عدوة افريقيا .. فلتقد كنت تعرضت لذكر شيء عنه ، في رسالة صغيرة جدا من وريقات كنت اصدرتها عن « جبل طارق والعرب » ..

فبالرغم من اننى من المشرق العربى البعيد ، من اعماق جزيرة العرب ، استحوذ هذا الجبل على اهتمامى ، لارتباطه بامجاد العروبة .. وفتوحات الاسلام ، ومن واجب كل عربى ، ان تكون بلاد العرب كلها هواه .. وكلها وطنه ..

وقد اوردت في ذلك الكتيب الصغير (صدر في طبعات ثلاث اخيرتها منقحة شيئا ما) ما رواه شمس الدين ابو عبد الله محمد بن ابى طالب الانتصارى الدمشقى المعروف بشيخ الربوة (ت 727 هـ) في كتابه « نخبة الدهر في عجائب البر والبحر » ص 136 وما بعدها : ان المؤرخين زعموا ان الاسكندر حفر الزقاق ، واجراه من المحيط ليفرق به اهل الاندلس والبربر ، واهل بر العدوة والاسبان ، لينعمهم من غارات بعضهم على بعض ، وزعم آخرون انه لم يحفره ولكنه اراد ان يعمر عليه جسرا من قناطر ففعل ذلك ، ثم ان البحر طحا وزاد ، وغطاها .. وانه الى الآن ينظر الراكب فيه الى القناطر تحت الارض عند سكون الريح ، وهدوء الموج ، ونقص مده وجزره «

ثم اوردت ان المؤلف ، وصف عرض الزقاق ، وقال ان الجسر الذى بناه الاسكندر ، في اضيق مكان امكنة البناء ، وهو اربعة آلاف خطوة وذلك طول ميل واحد ، ثم وصف القناطر والجسور ، وان الاسكندر استعان في بنائها بفكرة الراكب المتصلة المتيدة بسلاسل .. (ص 20)

واضيف هنا الى ما ذكرته هناك ، التفاصيل التى ذكرها صاحب « نخبة الدهر » ، فقد ذكر انه

« واذا لفظنا ان اقدم اسماء هرقل ، على اختلاف صورها في اللغات الاوربية هو الاسم الاغريقى (هراكلس Herakles) الشبيه جدا باسم « ايراقال Irragal » البابلى ، لم يسعنا الا ان نتساءل جادين : هل اعمدة هرقل هي نفسها اعمدة ايراقال ، او هي مقتبسة منها ؟ هل هي اعمدة مائبة ؟ ان اعمدة هرقل ليس لها تعريف واضح محدد ، وانما يطلقها بعضهم على جزيرتين او اكثر في المحيط الاطلسى بالقرب من جبل طارق . ويطلقها بعضهم على جزيرتين او اكثر في البحر المتوسط بالقرب من جبل طارق ايضا . ولا يدري احد سبب هذه التسمية .

ويستمر الاستاذ الفاضل قائلا :

« ثم تفزت الى خاطرى مسألة اخرى . كنت قرأت في كتابعربى ان هذا المضيق كان يقوم عليه جسر بأعمدة يعبر عليه الناس والدواب ! »

ويشبع الاستاذ البحث ، ويطيل فيه القول باناة ، مرتبا افكاره وخواطره الى ان ينتهى الى القول ، بان اسم (هيراكلس) انما اطلقه اليونان على إله = الدعائم المائبة اولا ، ثم على البطل الانسان ، الاغريقى المشهور ..

واذن فأعمدة هرقل التى بمدخل جبل طارق ، انما يراد بها الاعمدة المائبة التى تحجز البحر المحيط ، او التى تطلته .. ويستبعد أن يكون هناك جسر قد قام في يوم من الايام ، على مضيق جبل طارق يربط ما بين القارتين او العدوتين ..

وهو يقول في صراحة وجزم : « واما قول القائلين ان جسرا كان يقوم على مضيق جبل طارق فوهم صراح . لان العالم المتحضر لم يستطع حتى اليوم ان يقيم جسرا على مثل هذا المضيق البحرى العريض » ..

ويقول : « لكن هذا الوهم قد سببه ، فيما يظهر ان بعضهم صار يسمى المضيق نفسه « اعمدة

« تسم المضيق الى سبعين قنطرة ، باثنين وسبعين برجا ، قاعدة ما بين كل حنية منها مع برج ، خمسون ذراعا ، وابتداء العمل من الساحلين ، حتى ختم بالوسط ، قال اهل الهندسة : وكيفية بناء ذلك ، انه بنى في الطرفين ما امكته ارتكاكا ردهما ، حتى وصل الى الماء العميق المتحرك بالموج ، فاتخذ عليه مراكب كالجسر ، وأوصل بعضها ببعض بالحبال حتى اتصلت ، ولزمت بعضها ببعض بالحبال والايثاق ، ثم اوصل كعاب سلاسل الحديد المحكمة ، كعبا الى كعب وعلقتها في المراكب شيئا بعد شيء ، حتى اوصلها سلسلة واحدة من البر الى البحر ، ثم اوثق اطرافها من الناحيتين ، ثم انه مد ثلاث سلاسل اخرى كذلك ، وجعل بين كل سلسلتين مراكب منظومة جسرا محكما ، وجعل بين هذين الجسرتين فضاء في البحر نحو اربعين ذراعا ، ثم فرش في الفضاء على وجه البحر طوال الخشب المحكم المتداخل بعضها ببعض بالدرسر والقلفاط ، حتى صار الفرش كمثل الحصير المفروش على وجه الماء وهو ملء ذلك الفضاء بين تلك السلاسل ، وجعل مثل الواحد المفروش مفارش بعدد الابرجة التي بين الحنايا ، فلما كمل اقام على كل مفرش منها حائطا من الخشب المحكم ، والتصفيح بالحديد نحو قامة ، ثم بنى في وجه كل مفرش مدمكا بالحجارة والكس ، ثم رفع الحوائط بالخشب كذلك ، ثم بنى مدمكا فوق مدمكا حتى وصل المفرش الى ارض البحر وهو برج من حجارة محكم البناء ، له غلاف كالصندوق من الخشب المدرس المحكم التصفيح بالقلفاط ، فلما استقر كل مفرش وصار برجا قائما في الماء ممسوكا بين السلاسل ، بنى عليه مداميك ارتفع بها عن ضرب الموج ، وعن زيادة المد ، ثم ترك ذلك سنة ، على تلك الحالة ، ثم تفقده باصلاح ، ثم بنيت اوائل القناطر على رؤوس تلك الابرجة ثم جعلت لها القوالب وعقدت عليها فكلمت ، ثم تركت سنة ثانية ، ثم ركب بالعمارة جسرا طوله اربعة آلاف ذراع وزيادة مائتى ذراع ، واستمر حتى طغى البحر فركب الجسر ، وفاض عليه ، وعم ما حوله حتى وصل الى ما وصل اليه من البلاد وتحير بعض اهل البحر المسافرين فيه ، أنهم بعض الاحيان ، يتوقف

الريح ، ويسكن البحر ، فيرون في قرار البحر اسوارا ، وعمارات قائمة فيه ، تحت الماء ..

ولم يكتف صاحب نخبة الدهر ، بما وصف مفصلا ، فاضاف الى ذلك رسمين توضيحيين ، لتبيين وصفه .

وبالرغم من انه لا يصح الجزم بمثل هذه الروايات ، الا انها تفتح الباب للبحث ، وقد تفتحه ايضا للتقريب عن حقيقة تلك السلاسل والارصفة والقناطر .. وربما عنى بالامر بعض علماء الآثار ..

واذا اخذنا في الحسبان ان الانسان المتحضر القديم ، اتى بالاعاجيب خاصة في عالم البناء والعمارة .. وترك في ذلك آثارا لاتزال ماثلة كالاهرام ، لا ندهش حينما نجده قد اضطلع باعمال جبارة من هذا القبيل ..

ويقرب الامر الى الاذهان ، ان الجسر الذى يصفه صاحب « نخبة الدهر » لم يقم على مدخل الزقاق ، على عرضه الحالى ، بل تام عند اضيق نقاطه ، وان عوامل الزمن ، وتلاطم الموج ، قد زادت من اتساع المضيق .. ولعلماء البيولوجيا كلام في ذلك طويل ..

وللمقرئ (ت 1041 هـ) في نفع الطيب ج 1 ص 132 ، كلام عن احتفار الاسكندر للزقاق ، وصل به ما بين البحرين ، البحر المحيط ، وبحر الروم وانه بنى رصيفين ، على كل جهة رصيف ، وان عملية الحفر ، وطغيان ماء المحيط سبب هلاك خلق كثير على الشاطئين .. وان الماء طفا على الرصيفين احدى عشرة قامة « فاما الرصيف الذى يلى بلاد الاندلس ، فانه يظهر في بعض الاوقات ، اذا نقص الماء ظهورا بينا مستقيما على خسط واحد ، واهل الجزيرتين يسمونه القنطرة ، واما الرصيف الذى من جهة العودة ، فان الماء حمله في صدره ، واحتفر ما خلفه من الارض اثنى عشر ميلا ، وعلى طرفه من جهة المغرب قصر الجواز ، وسبتة وطنجة ، وعلى طرفه من الناحية الاخرى جبل طارق بن زياد وجزيرة طريف وغيرها والجزيرة الخضراء .. »

من الموج ، وتمادى الزمن ..

أما النص الذى يغلب على ظنى ان الاستاذ الفاضل قد وقف عليه ، الخاص بان هناك جسرا بأعمدة يعبر عليه الناس والدواب .. فأحسبه النص الذى ورد لدى المسعودى (ت 346) فى « مروج الذهب » (ص 348 من الطبعة الثالثة 1377 هـ تحقيق محمد محبى الدين عبد الحميد) ، ولعله اسبق النصوص وأقدمها ، وتمد أورده فى سياق قصته العالم القبطى المعمر ، الذى أحضر لابن طولون ، ووجهت اليه عدة اسئلة ، كان يتولى الاجابة ، عليها . وهذا هو النص ، حيث ورد به ذكر الدواب :

« .. وتمد كان بين الاندلس ، وبين موضع الذى يسمى الخضراء ، وهو قريب من فاس المغرب وطنجة ، قنطرة مبنية بالحجارة والطوب ، تمر عليها الإبل والدواب من بلاد الاندلس الى المغرب ، وماء البحر تحت تلك القنطرة ، متقطع = خلجانات صفارا ، تجرى تحتها تناظرها ، وما عقد من الطامات تحتها على صخور صم ، وتمد عقد من كل حجر الى حجر طاق ، وهو مبدأ بحر الروم الآخذ من اوثيانوس ، وهو بحر المحيط الاكبر ، فلم يزل البحر يزيد ماؤه ، ويعلو ارضا فأرضا فى طول مهر السنين ، يرى زيادته أهل كل زمان ، وتبينه أهل كل عصر ، ويقفون عليه ، حتى علا الماء الطريق الذى بين العريش وبين تبرص ، وعلا القنطرة التى كانت بين الاندلس وير طنجة وما وصفت فبين ظاهر عندا أهل الاندلس ، وأهل فاس من بلاد المغرب من خبر هذه القنطرة ، وربما بدا الموضوع لاهل المراكب ، تحت الماء ، فيقولون : هذه القنطرة ، وكان طولها نحو اثنى عشر ميلا فى عرض واسع ، وسمو بين ، فلما مضت لديقلياتوس من ملكه مائتان واحد وخمسون سنة هجم الماء من البحر على بعض المواضع .. » الخ

هذا ما وفتت عليه فى هذا الموضوع ، احببت ان اذكره للاستاذ الجليل « عبد الحق فاضل » ، عسى ان يفتح طريقا لاحقا للبحث ، أو يقيم جسرا متينا الى الحقيقة ، وفوق كل ذى علم عليم .

وما نقله المقرئ ، يدل على ان الاسكندر وصل البحرين ، ولم يصل البرين ، عكس ما ذكره صاحب « نخبة الدهر » فيما اوردت من أقواله ..

وهنا اود ان اذكر ان الدكتور عبد الهادى التازى ، وهو من أهل هذه الشعاب ، قال ضمن تعليقاته فى كتاب (المن بالامامة) الذى أخرجه ، وهو لابن صاحب الصلاة ، ان رصيف الاسكندر الذى يمتد من طنجة الى ساحل الاندلس قد تهدم قبل الفتح الاسلامى بمائتى سنة ..

ومعنى هذا انه لم يداخل الدكتور التازى شك فى وجود رصيف الاسكندر .. الا ان السؤال الذى يرد هنا ، هو هل كان الرصيف ممتدا بين الساحلين ليصل جسرا بينهما ، أم انه على كل شاطئ رصيف ، وبينهما بحر ؟

لعل الدكتور التازى — وهو غزير العلم والفضل — ان يشارك برأيه فى هذا البحث ؟

أما ياتوت الحموى (ت 626) فيحدثنا فى مادة (بحار — بحر المغرب) فيقول : « .. وترأت فى غير كتاب من اخبار مصر والمغرب ، انه ملك بعد هلاك الفراعنة ، ملوك من بنى دلوكة ، منهم دركون بن ملوطس وزمطرة ، وكانا من ذوى الراى والكيد والسحر والقوة ، فاراد الروم مغالبتهم على أرضهم ، انتزاع الملك منهم ، فاحتالا أن فتقا البحر المحيط من المغرب ، وهو بحر الظلمات ، فغلب على كثير من البلدان العامرة .. والممالك العظيمة ، وامتد الى الشام ، وبلاد الروم ، وصار حاجزا بين بلاد الروم وبلاد مصر .. »

على ان هذه النصوص لا ترقى مرتى اليقين ، بل ان الشك فيها يجب ان يكون وافرا .. ولكنها — كما اسلفت — تلقى ومضات من الضوء على طريق الباحثين والمنتقنين ..

وهكذا نرى ان بعض النصوص ، تدل على ان الشاطئين كانا رتقا ، وان ايدى البشر فصلتهما .. ومعنى ذلك ، ان صحت الرواية ، ان المسافة المفتوحة كانت ضيقة جدا ، وانها اتسعت فيما بعد بعوامل